

# على هامش الذكرى

بقلم : عبد الرحمن الغريب

في هذه الايام حيث تحتفل الجزائر بالذكرى التاسعة والعشرين لوفاة الامام الاستاذ عبد الحميد بن باديس<sup>(١)</sup> ، زعيم النهضة الفكرية في البلاد ، تعود بي الذاكرة الى الايام الحالكة والظروف الصعبة التي كانت البلاد تجتازها في بداية حركتها الاصلاحية . التي كانت مطلع فجر حركتها الفكرية .

كان ذلك في نهاية السنة الاولى لتأسيس الجمعية ، ( جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ) في ماي ١٩٣٢ . لقد شعرت فرنسا بعد ما اذنت للجمعية ورخصت لها العمل بمقتضى قانون ١٩٠١ أن هدف الجمعية ليس مجرد الوعظ والارشاد كما تفهم الادارة وكما هو مألوف من « دراويش » الطلبة و« فقراء » الطريقة الجامدة . فقررت ان تقتل الجمعية في بدايتها قبل ان تنتشر دعوتها في الوطن ويستفحل خطرها .

اجتمع أهل الحل والعقد في دائرة الاستخبارات الفرنسية وكان الاجتماع بدار العمالة حيث يوجد رئيس البوليس السياسي والكاتب العام للامن وحولهم نفر من الحثالة .. والاذناب الذين يأتمرون بأمرهم وينفذون خططهم ، وكان القرار الاخير هو «تعويم» الجمعية بحشر عدد كبير من الدراويش الجامدين في داخل الجمعية باعطائهم اوراق عضوية مزورة وبفضل العدد الكبير منهم يمكن قلب الجمعية واسناد رئاستها الى « ذبولهم » ولا يرى الناس اي حرج في دخول افراد استولوا على الجمعية بواسطة انتخاب قانوني - وان كان صوريا - .

وفي صبيحة الاجتماع العام كان نادي الترقى يعج بالنماذج التي تقدم الكلام عنها فادرك المخلصون من اعضاء الجمعية ان مكيدة مذبذبة قد بدت في الافق .

واجتمع المجلس الاداري تحت رئاسة الاستاذ ابن باديس للقضاء على المكيدة . وتقرر اعادة فرز اوراق العضوية ومراجعة القائمة الانتخابية للاعضاء العاملين ،

---

(١) في هذه السنة اقيمت بكامل الوطن احتفالات ثقافية في مدارس القطر ، واصبح يوم الذكرى ( يوم العلم ) تحتفل به البلاد كل سنة .

حتى لا يشارك في الانتخاب الا العضو العامل الذي يخوله القانون الاساسي للجمعية حق الانتخاب . وقامت قيامة انصار الادارة الاستعمارية وحاولوا افساد الاجتماع بالشغب ونشر الفوضى في رحاب النادي حتى يجد البوليس حجة تسمح له بالتدخل ومنع الاجتماع باسم حفظ النظام .

وشعر الاستاذ واصحابه ان الامر دبر بليل ، ولا يرد كيد الخصوم الا بالحكمة ، فرفعت الجلسة .

وبعد الزوال استؤنف الاجتماع ولم يسمح بالدخول الا لمن توفرت فيه شروط العضو العامل . واعيد انتخاب المجلس الاداري وفازت قائمة العاملين المخلصين تحت رئاسة الاستاذ الامام .

كانت المفاجأة ضربة قاضية للعملاء واسيادهم .. فراحوا يرجفون في المدينة بان جماعة بن باديس خرجت عن القانون وتسلمت على مقاليد الجمعية بغير حق ، وحاولوا اثاره فتنة في العاصمة ، الا انهم امام صلابه رجال الجمعية وتعلق الجماهير بهم لم يجدوا اي سبيل لبلوغ مراميهم .

اني لاذكر في ذلك اليوم ان ابناء الشعب ممن كانوا يرون في الجمعية المرشد والدليل الهادي ، كانوا يريدون الفتك بخصومها لولا تدخل اعضاء الجمعية وحثهم على الهدوء والتزام جانب الحكمة .

واصدرت الجمعية بيانا وزع في اغلب نواحي الوطن شرحت فيه حقيقة الامر حتى يكون الناس على بصيرة من الامر . وكان مما جاء فيه :

ايتها الامة .

قد وفق الله - وله الحمد والمنة - طائفة من ابنائك العاملين المخلصين لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لتقوم بتحقيق الاغراض المجملية في قانونها الاساسي والراجعة في الحقيقة الى اصل واحد وهو احياء فريضتي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر **بمعناهما الشرعي الحقيقي** ، وان القيام بهذين الركنين الدينيين لمن الواجبات على كل مسلم ، وان كان الواجب في حق العالم أكد منه في حق غيره ، لأن العالم يعرف ما هو المعروف شرعا ، وقد ضعفت آثار هاتين الفريضتين في نفوس المسلمين لعدم القيام بهما على وجههما ، وكان من آثار ذلك

في الامة ما نراه ونشاهده من طغيان المنكرات وتناقض السنن وعدم الاحترام  
للدين وشعائره .

.....

ان علماءك ايتها الامة ، كانوا يقومون بالواجب فرادى ، وعمل الفرد ضعيف  
وتأثيره قليل فرأوا ان يعملوا مجتمعين ليكون الاثر ابلغ والتأثير اعظم بسابق  
شعور ديني خالص نبهه في صدورهم قوله تعالى : ( ولتكن منكم امة يدعون الى  
الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ) .

وشرع المجلس الاداري المنتخب من الجمعية العمومية في تنفيذ مقاصد  
الجمعية وهو يعلم انه يحمل عبأ عظيما ويتحمل عهداً ثقيلاً لا يهونهما الا الاتكال  
على الله والاخلاص في خدمة دينه وايصال الخير الى خلقه ، ومرت السنة الاولى  
في تمهيد الوسائل التي تبنى عليها المقاصد .

وانت تعلمين ايتها الامة الكريمة ان الجمعيات ميراث يرثه الآباء عن الاجداد  
ثم يسلمونه لابنائهم ، فلا تقاس اعمار الجمعيات بالاعمار الطبيعية للافراد ،  
ولا يعد الكثير في احدها كثيرا في الآخر .

وحسب الجمعية شرفا أن ترى - وهي في الخطوة الاولى من تأسيسها -  
الامة شاعرة بالمعنى . . الذي أسست لأجله ، وقد رأت هذا متجليا في كل  
ماتماست فيه الجمعية والامة من قول وفعل ، وان لسان الفعل لا يبلغ من لسان  
القول ، وان ما ظهر من الامة من دلائل التنشيط والمناصرة لأكبر عون للجمعية  
على الماضي في سبيلها من خدمة الامة في دينها واخلاقها .

.....

فاما اهل العلم والانصاف فوقفوا عند حدود الادب والامثال وهم احق به  
واهله ، واما من عداهم ومعظمهم ممن لاحق لهم في الحضور والكلام فقد شوشوا  
وشاغبوا وخرقوا سياج الادب واعتدوا على حرمة الاجتماع العمومي .

ولما رأى الرئيس ان الامر آيل للخطر وان هناك دفعا الى فتنة رفع الجلسة  
الرسمية احتياطا .

قد نقلت اقاويل واشاعات تصم المجلس القديم بالباطل ومصدرها تلك  
الشرذمة المشاغبة ، وغاية ما في الامر ان المجلس الاداري استعمل الحزم وحافظ  
على النظام الذي هو روح الاعمال واحتاط لما عسى ان يقع مما يخل بشرف الامة  
المائلة في جمعية العلماء .

ولا نظن عاقلا على وجه الارض يؤثر الفوضى على النظام الا ان يكون يؤثر  
الباطل على الحق ...

هذه هي الحقيقة عرضناها على الامة حتى لا يملأ الباطل مكان الحق من  
نفسها . »

بعد ذلك البيان عرفت الامة حقيقة الامر ، وادركت مغزى المناورة التي قام  
اذناب الاستعمار بتنفيذها ، والتفت الامة حول الجمعية تشد ازرها وتناصرها .

ومن الفد اجتمع المجلس الجديد . ووقف الاستاذ عبد الحميد ليعلم  
بصراحة لا هوادة فيها ان مبادئ الجمعية الاساسية هي : العربية لفتنا ،  
والاسلام ديننا ، والجزائر وطننا .

وان الواجب الاول على اعضاء الجمعية هو افهام الشعب مغزى الاهداف  
السامية التي يجب تحقيقها حتى تستعيد الجزائر شخصيتها العربية الاسلامية .  
وان ادعى المحتلون ان الجزائر فرنسية . فالجزائر ليست فرنسية ولا يمكن  
ان تكون فرنسية .

وقد كان الاستاذ في خطابه ذلك اليوم كالسيل الهادر . لقد قال في بدايته :

« ليعلم كل ذي موسى ان موسى الله أحدّ ، وكل ذي ساعد ان ساعد الله أشدّ ،  
وكل متكبر ومتجبر ان لا اله الا الله والله اكبر » .

وارتجت جنبات نادي الترقى ( مقر الجمعية ) تردد صيحات الحاضرين :  
الله اكبر .

وازاء اخفاق انصار الادارة الاستعمارية لم تجد الحكومة بدا من جمع  
فلول « ذبولها » فأعطتهم مكانا كونوا فيه جمعية ضرار لعلها تستطيع محاربة  
الجمعية . ورغم المحاولات والاعانات التي مدت بهم بها الادارة الحاكمة ، لم تصمد  
جمعيتهم طويلا ، وجرفت سيول الاحداث وعصفت بها الايام ودخلت في طي  
النسيان . فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض .

رحم الله بن باديس العالم العامل ، والداعية المخلص ، والهم اجيالنا  
الصاعدة صموده ، حتى تعمل على خدمة البلاد والعباد مثلما عمل ، وكان  
يأمل منها ان تعمل .